ترتسمُ في عينيكَ غرابة سماءٍ ليست سماءَك

يوم «بداية السنة» للبالغين والطلبة الجامعيّين من

أعضاء شراكة وتحرّر

ميلانو في ٢٦ أيلول/سبتمبر ٢٠١٥

ترتسمُ في عينيكَ غرابة سماءٍ ليست سماءَك

تدوينات مداخلتي دافيدي بروسبيري وخوليان كارّون في يوم بداية السنة للبالغين والطلبة الجامعيّين من أعضاء شراكة وتحرّر، الذي عُقد في ميديولانوم فوروم بمدينة أسّاغو (ميلانو) في 26 أيلول/سبتمبر 2015

خوليان كارون

فلنسأل الروح القدس أن يبعث فينا حبًّا للمسيح وتعلّقًا به كيما نتمكّن من الشهادة له في جميع ثنايا عيشنا

هلمَّ أيّها الروح القدس

La mente torna
I wonder as I wander

دافيدي بروسبيري

مرحبًا بكم في هذه المبادرة التي نبدأ بها سويّة عامًا جديدًا. أحيّي كذلك جميع الأصدقاء الذين يتواصلون معنا عبر الإنترنت من مدن مختلفة في إيطاليا والخارج لكي يعيشوا معنا هذه البادرة.
"إنّ أفضل يوم من أيّام الأسبوع هو يوم الاثنين، وذلك لأنّنا يومَ الاثنين نبدأ من جديد، نبدأ من جديد الطريق، والمصير، نبدأ من جديد تحقيق الجمال والمودّة"[1]. تفسّر عبارة دون جوساني هذه سبب عدم تعبنا أبدًا من البدء من جديد، وسبب تعلّقنا بهذا الجمال أكثر من تعلّقنا بأيّ أمر آخر، لذلك فلنطلب من رفقتنا الكبيرة أن تساعدنا على عدم الشعور بالإحباط، بحيث تنمو يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة، محبّتُنا لمصدر الجمال.
قال دون جوسّاني خلال الرياضة الروحيّة التي عُقدت في فاريغوتّو عام 1964: "يجب علينا أن نناضل من أجل الجمال، إذ من غير الجمال لا يمكن العيش. وهذا النضال يجب أن يشمل كلّ التفاصيل، وإلا فكيف يمكننا يومًا ما أن نملأ ساحة القدّيس بطرس؟"[2]. لقد ملأناها، تلك الساحة، في 7 آذار/مارس الماضي. فقد طلبنا لقاءً مع البابا لكي نسأله كيف نحافظ على نضارة البداية تلك، التي هي حاسمة لكي تبقى حركتنا مفيدة للكنيسة وللعالم. أعتقد أنّ كلّ فرد منّا موجود هنا لأنّه يعتبر أنّ هذه الخبرة صالحة من أجل حياته. ولكن كيف يمكننا أن نكون أكثر فائدة للكنيسة، فنخدم مجد المسيح في العالم؟ لقد أجابنا البابا عبر تكليفنا بمهمّة، كما نذكر جيّدًا، "في وضعكم المسيح والإنجيل في صُلب اهتماماتكم، يمكنكم أن تكونوا ذراعَي ويدي وقدمي وعقل وقلب كنيسة "خارجة"[3].
لقد استعاد كارّون ذلك الجواب في رياضة الأخويّة الروحيّة: "ممَّ يمكننا أن نتعرّف إلى هذا الحضور؟ من واقع أنّه يُعدنا عن وضع اختزالاتنا وسهواتنا في صُلب اهتماماتنا ليُعيدنا إلى الصُلب الحقيقيّ، إلى المسيح. (...) فالمسيحيّة هي حدثٌ دائم"[4]. علينا أن ندرك أنّ هذا يشير إلى اتّجاه معيّن، وهو أنّه يتعيّن علينا أن نعيد التركيز على أولويّة الحدث، وأن ننفتح مرارًا وتكرارًا على المسيح كحدثٍ وقع في التاريخ الماضي، ويحدث في الحاضر بطرق دائمة التجدّد، نحن مدعوّون لاتّباعها . هذا ما رأيناه في لقاء ريميني الأخير. والنهج الذي يستخدمه الله ليدخل التاريخ هو نهج حرّيّة الاختيار: اختيار رجلٍ، هو إبراهيم. فمن بين العديد من الرجال الذين يحاولون إعطاء اسم للسرّ، يتمّ اختيار

L. Giussani, *Dal temperamento un metodo*, Bur, Milano 2002, p. 31[1]
L. Amicone, «Il 25 aprile di Rimini», *Tempi*, n. 18/2004, p. 20 [2]
[3] فرنسيس، الخطاب لحركة شراكة وتحرّر، 7 آذار/مارس 2015.
Una presenza nello sguardo, suppl. *Tracce*, n. 5/2015, pp. 33-34. [4]

رجلٍ واحد، يدعوه السرّ باسمه، "إبراهيم ..."، كيما يمكنه بدوره أن يدعوه باسمه، كما يدعو الطفلُ والدَه . يصف هذا النهج نفسُه تاريخنا.

في الواقع، من بين الأمور التي تثير انبهاري في الحركة هو كيف كانت بداية كلّ شيء. وهو ما يمكنكم أن تقرؤوه في كتاب سافورانا[5]. فقبل عدّة سنوات انتاب صبيًّا شعورٌ قويّ بأنّ حياته لم تكن بلا جدوى. لم يكن يعرف، لم يكن يتصوّر كيف يمكنها أن تكون مفيدة، لكنّ الشيء الوحيد الذي كان يعرفه حقّ المعرفة هو أنّه لا يريد أن يعيش من دون جدوى، وأنّه مهما طلب منه الربّ أن يفعل، فإنّه سيقدّم كلّ ذاته لكي تكون حياته مفيدة للعالم، ومفيدة لتدبيره تعالى. وأنا أضيف، إنّني أعترف - إنّني أعترف - بأنّ هذا الشعور يختلج في نفسي أنا أيضًا! لكنّ هذا الشيء الذي يختلج في داخلنا جميعًا، لا نأخذه في كثير من الأحيان على محمل الجدّ إلى حدّ القول: "أقضي حياتي، كلّ حياتي من أجله". بيد أنّنا هنا اليوم لأنّ ذلك الصبيّ أصبح رجلا، وبعدها عجوزًا، وبقي طوال حياته وفيًّا لذلك الشعور، لا بل وفيًّا لذاك الذي رسم له الطريق من أجل تحقيق رغبته تلك. والموهبة (الكاريزما) التي تلقّاها هذا الرجل، وخلقت شعبًا (جماعة) داخل حياة الكنيسة، تلقّاها من أجل العالم؛ ونحن الذين فُضّلنا، لأنّه لم يكن هناك من داعٍ للقاء ما لقيناه ممّا لا يعرفه الكثيرون، نحن الذين رأينا، نحن الذين تمّ اختيارُنا، والذين رأينا الملامح الواضحة لوجه المسيح من خلال شهادة رفقة حاسمة إنسانيًّا وتجلب السكينة للحياة، نحن الذين أتيح لنا أن نختبر المسيح كأمر جذّاب لا يُقهر، إنّما قد اختِرنا من أجل العالم. لقد أُعطيتْ لنا خبرة المعرفة هذه، لكي ننقل جمالها إلى الجميع. وإلا فما معنى التفضيل؟ لكان من الظلم.

تثير فيّ رواية الأعمى منذ ولادته نفسَ المشاعر دائمًا. فهذا البائس كان ينظر إلى نفسه مثلما ينظر اليه الجميع. وكان هو "بلاؤه". حياة بلا أمل. وكان هناك العديد من أمثاله وكانوا كلّهم ينظرون إلى أنفسهم بنفس الطريقة، وفقًا لنظرة معيّنة كانت شائعة على نطاق واسع في الديانة اليهوديّة آنذاك: إنّهم معاقبون جسديًّا لأنّهم أشرار، نجسون في داخلهم، آثمون! لكنّ ذلك الرجل اختاره ذلك اليوم واستعاد الأعمى بصره، وعندما استجوبه معلّمو الشريعة والحكماء قال: "كلّ ما أعرفه هو أنّني لم أكن أستطيع أن أرى بينما أرى الآن، وأرى الواقع، وليس الماديّ فحسب، بل أرى حقيقتي، حقيقة ما أنا عليه. لستُ من تقولونه أنتم، فأنا هو من رأيته يلمع في عيني الرجل الذي كان يحدّق في وجهي، وينظر إليّ أنا بالتحديد، إلى العدم الذي أنا عليه، وكان ينظر إليّ بصداقة. لقد اختير هو بالتحديد ذلك اليوم لكي يتألّق مجد المسيح من خلال التغيير الذي طرأ عليه، لكي يستطيع الذين في مثل حاله أن يعرفوا حقيقة أنفسهم وحقيقة العالم من حولهم، حقيقة كلّ شيء، فيتحرّروا. لقد استخدم الله، من إبراهيم فصاعدًا، هذا النهج، ونحن من هذه الأرومة. لذلك فإنّ حياتنا تصبح مفيدة عندما نعيشها للغرض الذي اختِرنا من أجله، كما قال والدٌ في جنازة طفله الذي توفّي في الثالثة من عمره بمرض السرطان: "على الصورة التذكاريّة اخترنا وضع هذه العبارة التي تصفه بشكل جيّد: المهمّ في الحياة ليس أن تفعل شيئًا، بل أن تولد وتكون محبوبًا".

إذا ما تطلّعنا قليلا إلى الوراء، إلى العام الماضي، بدءًا من أحكامنا حول أوروبّا وانهيار البيّنات – كما نتذكّر جيّدًا – فإنّ مبادرتنا تنبع من نفس السؤال الذي طرحه دون جوسّاني: في الوضع الذي نحن فيه، ألا يزال بإمكاننا أن ننقل المسيح بذلك السحر وذلك الإقناع للعقل والعاطفة الذي وقع لنا؟

في لقاء ريميني، كان لدينا العديد من اللقاءات مع شهود للإيمان، فضلا عن لقاءات مفاجِئة أخرى، وربّما غير متوقّعة، كما تجدون بشكل موثّق جدًّا في عدد أيلول/سبتمبر من مجلّة تراتشي.

لقد تساءلت: بماذا يتأثّر من يواجه شيئًا كهذا؟ لماذا يتأثّر المرء؟ لماذا يمكننا القول، كما فعل على سبيل المثال بيترو موديانو، إنّ "مجرّد وجود مكان (...) يمكنك فيه طرح مثل هذه الأسئلة"، أي الأسئلة الحقيقيّة، "إنّما يجعلني أنا القادم من بعيد لا أشعر بالبُعد"؟[6] هذا يُنبئ بأساس الذهول والانبهار.

إنّ ما يلتقيه المرء هو فاعل مختلف، شعبٌ غنيّ بهويّته وتاريخه، ومن ثمّ فهو يلتقي باقتراح. قد يُعجب أولئك الذين يلتقوننا أو لا يعجبهم، لكنّ سحر الحضور الأصيل يكمن في اقتراح تلك الخبرة الحيّة التي تحاول أن تتعرّض لجميع جوانب الشأن الإنسانيّ واهتماماته. هذا ما رأيناه، على سبيل المثال، عندما أصدرنا المنشور حول الانتخابات بعنوان

---

[5] *Vita di don Giussani*, Bur, Milano 2014

[6] *Tracce*, n. 8/2015, p. 12

"الانطلاق من أسفل"، مقترحين في ما يتعلّق أزمة المُثل العليا التي تعصف بوطننا، أنّ اكتشاف الآخر لهو أمرٌ حسن، وليس عقبة يتعيّن تخطّيها، وذلك لخير ملء الأنا لدينا، سواء أكان في السياسة أم في العلاقات الإنسانيّة والاجتماعيّة.
وهكذا ندرك أنّ الانفتاح بلا حدود، الذي يميّز الحوار بمعناه المسيحيّ، يحمل في طيّاته إشارة لا غنى عنها: لا يمكن أن يقوم حوار حقيقيّ، إن لم أكن أنا واعيًا لهويّتي. هذا هو النهج الذي ندخل عبره في مقارنة مع كلّ شيء. فالحوار الحقيقيّ ينطوي على نضج في وعيي لذاتي. يقول دون جوسّاني في كتاب "الخطر التربويّ" إنّه بدون هذا النضج في وعيي لذاتي، "أقف مكبّلا بفعل تأثير الآخر، أو يثير فيّ الآخر الذي أصدّه تصلّبًا غير عقلانيّ في موقفي. لذلك، من الصحيح أنّ الحوار ينطوي على انفتاح على الآخر، (...) لكنّه ينطوي أيضًا على نضج لي، وعلى وعي نقديّ لمن أكون"[7]. لذلك استعدنا في مناسبات عديدة على مرّ السنين الماضية موضوعين من بين الاهتمامات الأساسيّة، الهادفة إلى بناء مجتمع جديد، كفرضيّة مقترحة على الجميع: 1) الجماعة المسيحيّة، كونها موجَّهة، هي المكان الذي نكتشف فيه تدريجيًّا كيف أنّ المسيح يجيب على أسئلة الحياة، ممّا يزيد من علاقة الثقة مع الحقيقة، التي يكاد الطموح إليها يبدو مستحيلا؛ 2) هذه الثقة الأكيدة بالحقيقة التي التقينا بها تجعلنا، في الوقت المناسب، قادرين على التزام حيويّ في المجتمع، وعلى انفتاح كامل أيضًا، وعلى حرّيّة تسمح لنا للتعبير عن جديد الحياة الذي تقدّمه الخبرة المسيحيّة بشكل مُقنع وحتى رائع، خالٍ من تصوّرات "غير قابلة للتغيير"، لا تفي دائمًا باحتياجات عصرنا. هذا ما رأيته بوضوح قبل ثلاثة أسابيع، خلال مشاركتي في لقاء مع خمسمائة فتى ومدرّس من الشبيبة الطلابيّة: إنّ ما يساعدنا على أن نصبح متيقّنين ومتجذّرين في وعينا لهويّتنا المسيحيّة إنّما هو ما يجعلنا ننمو في مسيرتنا نحو المصير. على أيّ حال سنعود للحديث في هذه الأمور هذا العام، عند قراءتنا كتاب كارّون الذي صدر للتوّ تحت عنوان "الجمال الأعزل".
في كلّ هذا، اسمحوا لي أن أقول، نتعرّف إلى سخرية الله. فالمسيح لا يواجه تطفّل السلطة، المندفع في الظاهر من غير مقاومة، بسلطة أخرى، بل برفقة إنسانيّة متهالكة، "برفقة أناس" اختارهم هو، لكي يدوم حضوره أبدًا في الزمان والمكان، وبحضوره، كما قال ذات مرة دون جوسّاني بصورة جميلة "ينافس الليل على كلّ شبر من الأرض"[8]. لقد استمعنا إلى الكثيرين من الشهود، وفي مقدّمتهم الأب إبراهيم، كاهن رعيّة اللاتين بحلب، الذي يمثّل جنبًا إلى جنب مع عائلة ميريم وغيرها أملَ شعبٍ يجد من الصعب رؤية ما يدفعه للاستمرار في الأمل . إنّهم يسطّرون تاريخًا بدأ مع نشأة الكنيسة، مع نشأة المسيحيّة، ويدركون أنّ الربّ يريدهم لهذا السبب أن يكونوا هناك في الشرق الأوسط، لكي يُثمروا هناك. ونحن علينا أن ندعم إخواننا المسيحيّين في هذه المهمّة، لأنّهم بذرة؛ ويجب الدفاع عن البذور.
أو عندما أرى بعض فتياننا الذين يحبّون بعضهم البعض بشكل لم يعُد أحد يتوقّعه اليوم، بطريقة نقيّة جدًّا، مكثّفة وشفّافة في الوقت عينه، ومفتوحة على مصراعيها للجميع، فإنّي أرى فيهم الإجابة الأكثر إقناعًا وعدوى للمشاكل التي تملأ المناقشات حول الأخلاق في عصرنا. اسمحوا لي أن أقرأ ما يكتب شابّ عمره 24 عامًا إلى صديقه: "أنا أحبّها. وأحبّ المسيح، أجل، أستطيع أن أقول في النهاية إنّي أحبّه! أنا أحبّه وأريد أن أعطيه كلّ شيء ... أريد أن أعطي كلّ شيء لملكوته، أريد أن أقضي بقيّة حياتي من أجل ملكوته، لأنّني سعيد، لأنّني ممتنّ. لقد امتلك قلبي. (...) وذلك من خلالها. أحبّه من خلالها وأحبّها كثيرًا، لأنني أفهم أنّه أعطاها لي. لقد تغيّر العالم بالنسبة لي، وأنا تغيّرت. كلّ شيء مشابه لما كانه من قبل، ولكن كلّ شيء جديد. (...) أنت تعرف، لقد عشت طويلا والرغبة تعذّبني في رؤيته حاضرًا في الجسد، في جسمٍ استطيع أن أراه وألمسه ... وبعدها نبتت زهرة. فجأةً. وتلألأت محبة الآب في قلبي وحياتي. الآن أنا أحبّ الحياة، أحبّها كثيرًا، وأحبّ حتّى كل ما عانيته، أجل أحبّه، وأحبّ معاناتي لأنّها كانت معاناة جديرة بأن تُعاش: كانت معاناتي عبارة عن عذاب رغبتي في رؤية التجسّد، في رؤية المسيح يتجسّد في حياتي ... هذا هو العيش. هذه هي الحياة".
يكمن جمال رفقة أسراريّة كرفقتنا، وعظمة الحركة، في أنّه يجعلنا قادرين على أن نحبّ بهذا الشكل، لأنّ الشابّ لا يمكنه الحديث عن حبّه للفتاة بهذه الطريقة من دون المسيح، من دون تجربة الإنسانيّ الذي يولد في رفقتنا: فالمسيح "يحقّق الإنسانيّ" حقًّا. وجواب الله على "أزمة" الأزمنة ليست خطابًا، بل هو حدث جمال، جمال أعزل، بالتحديد. أيّ جمال؟ واقع أنّ السرمديّ، الإلهيّ، يدخل في جسد العلاقة بين الرجل والمرأة بلحمه ودمه، ويحوّلها ويعزّز قدراتها

---

[7] *Il rischio educativo*, Rizzoli, Milano 2005, pp. 121-122

[8] L. Giussani, *Tutta la terra desidera il Tuo volto*, San Paolo, Cinisello Balsamo - Mi 2015, p. 116

العاطفيّة لدرجة أنّها تصبح صورةً عنه تعالى، ومجدًا له. في داخل العلامة وعبرها، يتركنا السرّ الإلهيّ نختبره فعلا منذ الآن، بحيث أنّ السرمديّ هو الذي يحضر فعلا من خلال الحبّ المتبادل بين الرجل والمرأة، كما في الصداقة الحقيقيّة، وفي الشراكة المسيحيّة. باختصار، هذا الجمال الإلهيّ هو علامة في متناول أيدينا، نلقاه في واقع إنسانيّ، هشّ ومتهالك قدر ما تريدون، ولكن يضيء فيه حضورٌ ليس من هذا العالم. هذه العلامة هي الكنيسة التي علّمتنا الحركة أن نحبّها. ومن يحيا من العلاقة بهذا الحضور يميل إلى ملء الواقع كلّه بالإيجابيّة والأمل.
لهذا نسألك: كيف يمكن للشهادة المسيحيّة أن تجيب اليوم على الفراغ والخوف اللذين يهدّدان بحرماننا من لذّة الحياة؟

كارّون

1. ظروف الشهادة وشكلها

يقول دون جوسّاني: "إنّ الظروف التي يجعلنا الله نمرّ بها هي عاملٌ أساسيّ غير ثانويّ من عوامل دعوتنا، من الرسالة التي يدعونا إليها. إذا كانت المسيحيّة هي إعلان بأنّ السرّ قد تجسّد في إنسان، فإنّ الظرف الذي يتّخذ فيه المرء موقفًا تجاه هذا الأمر مهمّ لتحديد الشهادة بالذات"[9].
بعد المسيرة التي قطعناها في العام الماضي، كما سبق وقال دافيدي لتوّه، يبدو لي أنّ بإمكاننا أن نفهم بشكل أعمق كلمات دون جوسّاني هذه. كلّما أراد أحدنا أن يعيش الإيمان ضمن واقعه، ازداد اهتمامه بفهم السياق الذي يتواجد فيه. وذلك ليس من أجل مصلحة اجتماعيّة بسيطة، بل لفهم طبيعة الشهادة التي نحن مدعوّون لتقديمها.
لكي نفهم مدى أهمّيّة الظروف في تحديد شكل الشهادة التي نحن مدعوّون إليها، قد تساعدنا قراءة قصّة المهرّج والقرية المحترقة التي أوردها الكردينال راتسينغر في بداية كتابه "مقدّمة إلى المسيحيّة"، الصادر عام 1968" "من يحاول التحدّث اليوم عن الإيمان المسيحيّ (...) سيشعر بسرعة كم هو عسيرٌ ومُزعج هذا المُراد. إذ سوف يراوده فورًا على الأرجح الشعورُ بأنّ موقفه قد وُصف وصفًا دقيقًا في مقدّمة رواية "المهرّج" المشهورة والقرية المحترقة التي كتبها كيركيغارد. (...) تحكي القصّة عن سيرك جوّال في الدنمارك، شبّ فيه حريق. فأرسل المديرُ المهرِّجَ على الفور، الذي كان قد ارتدى ملابس التمثيل، لطلب المساعدة من أهالي القرية القريبة، خاصّة وأنّه كان هناك خطر أن يقوم الحريق، في امتداده عبر الحقول المحصودة مؤخّرًا وبالتالي اليابسة، بإضرام النيران في القرية أيضًا. أسرع المهرّج مكربًا إلى القرية، متوسّلاً إلى السكّان أن يهرعوا إلى السيرك المُشتعل، ويساعدوا على إخماد الحريق. لكنّهم اعتبروا نداءات البهلوان حيلة ماكرة منه تعود إلى مهنته، لكي يجتذب أكبر عدد ممكن من الناس إلى عرضه؛ وهكذا صفّقوا له، وضحكوا حتّى انهمرت دموعهم. كان المهرِّج المسكين يرغب بالبكاء أكثر منه بالضحك، وحاول عبثًا أن يتوسّل إلى الرجال أن يذهبوا، شارحًا لهم أنّ الأمر ليس بتظاهر أو خداع على الإطلاق، بل هو واقعٍ مرير، حيث أنّ السيرك كان يحترق فعلا. ولم يكن بكاؤه إلاّ ليزيد الضحكات، فقد بدا وكأنّه يمثّل دوره بشكلٍ رائع...
واستمرّت الكوميدياعلى هذا المنوال حتّى شبّت النار فعلا في القرية ووصلت كلّ المساعدات بعد فوات الأوان: وهكذا خربت ألسنة اللهب القرية والسيرك معًا. (...) إنّ من يحاول نشر الإيمان بين البشر الذين يعيشون ويفكِّرون في يومنا الحاضر قد يتولّد لديه حقًّا الانطباع بأنّه بهلوان (...) يقدّم نفسه إلى عالم اليوم مرتديًا لباس القدماء وفكرهم، وبالتالي إنّه غير قادر على فهم أناس عصرنا، ولا جعلهم يفهمونه"[10].
لهذا السبب تبدو بعض أشكال إيصال الإيمان اليوم غريبة لدرجة عدم أخذها بعين الاعتبار، لا بل إثارتها الضحك.
يمكننا الآن أن نفهم بشكل أفضل القلق الذي أنتاب دون جوسّاني منذ بداية تاريخنا، منذ أن بدأ هو، عندما لم يكن للمرء أن يتصوّر ما سيحدث، عندما كانت الكنائس لا تزال تفيض بالناس والإيمان عارمًا، عندما كانت جميع الجمعيّات الكاثوليكيّة تضمّ العديد من المنتسبين، كان دون جوسّاني – مثله مثل نبيّ – قد شخّص المشكلة. وكيلا يبدو مثل المهرّج، حاول فورًا إظهار ملاءمة الإيمان لاحتياجات الحياة. هذا لا يعني أنّ نشر الإيمان لم يكن يحدث في

---

[9] *L'uomo e il suo destino*, Marietti, Genova 1999, p. 63
[10] *Introduzione al cristianesimo*, Queriniana, Brescia 2005, pp. 31-33.

الخمسينات – فقد واصلت الكنيسة القيام بذلك - لكنّ الكثيرين كانوا قد كفّوا عن اعتباره ملائمًا لاحتياجات الحياة. ولهذا السبب بالذات، كان العديد من الطلاب الذين التقاهم دون جوسّاني في مدرسة بيرشيه قد تخّلوا عن الإيمان، رغم نشأتهم في عائلات مسيحيّة. لقد اختبر دون جوسّاني بنفسه أهمّيّة الظروف التاريخيّة في تحديد شهادته. فقد كان عليه، هو الذي كان يعرف العقيدة الكاثوليكيّة حقّ المعرفة، أن يتساءل عن الطريقة الأنسب لإيصال الحقيقة، حقيقة كلّ العصور، في سياق كان سريعَ التغيّر.

إنّ العالم الذي نحن مدعوّون لعيش الإيمان فيه مختلفٌ تمامًا عمّا كان عليه في الماضي، حتّى القريب منه. إنّه عالم تتقدم فيه العلمنة، وانهيار البيّنات ماثلٌ أمام الجميع. ونتيجة لذلك، نشهد أيضًا سلبيّة وخدرًا ومللا، تبدو وكأنّها لا تُقهر، تمنع بشكل خطير من التعرّف إلى الواقع الحقيقيّ. هذا الوضع يمثّل التحدّي الأكبر الذي يواجه اليوم الإيمان، والرسالة المسيحيّة. وهو تحدٍّ يمسّنا نحن أوّلا. فإذا كنّا نحن أيضًا نعتبر الإيمان بمثابة مهزلة، وإذا كنّا غير قادرين قبل غيرنا على إدراك ملائمته للحياة، فإنّ اهتمامنا به سيسير على طريق الزوال. فكم بالأحرى غيرنا!

كلّ منّا مدفوعٌ للردّ على هذا الوضع الذي يواجهه ويستحثّه، حيث يقول دون جوسّاني: "إنّ الخبرة هي ارتطام الفرد بالواقع، الواقع الذي يدعوه ويسائله كحضور ("يثير لديه مشكلة"). المأساة البشريّة هي الجواب على هذه الإثارة ("المسؤولية")، والجواب ينبع بالطبع في الفرد. وقوّة الفرد تكمن في نسبة وعيه الذاتيّ، أي للتصوّر الذي يملكه حول القيم التي تحدّد شخصيّته [أعزّ ما لديه]. هذه القيم تتدفّق في الأنا من الحياة التي عاشتها والتي تنتمي إليها. (...) إنّ العبقريّة الجذريّة للفرد تكمن في قوّة الوعي بالانتماء. لهذا السبب يصبح شعب الله أفقًا ثقافيًّا جديدًا لكلّ فرد ينتمي إليه"[11]. لهذا فإنّنا من كيفيّة ردّنا على تحدّيات الحاضر، "نفهم ما إذا كنّا نعيش الانتماء وإلى أيّ درجة، فهو الجذر العميق لكامل التعبير الثقافيّ"[12].

يحدّد دون جوسّاني طريقتين لعيش الانتماء، ينبع منهما وجهين ثقافيّين تطرح عبرهما المسيحيّة نفسَها في العالم: الإيمان والأخلاق، حدوث الإيمان والقيم الأخلاقيّة. فقد قال في عام 1997 إنّ الكنيسة، في مناسبات عديدة، "تطرح نفسها (...) أمام العالم، لا أقول متناسيةً إيّاه، بل معتبرة أمرًا مفترضًا و مفروغًا منه المحتوى العقائديّ للمسيحيّة"، أي "حدوث الإيمان"[13]، والذي يتمّ اختزاله إلى "أمر مجرّد مفروغ منه يستوطن رأس الإنسان"[14]، مترسّخًا بالأخلاق والقيم. يبدو الأمر كما لو قلنا، "أعرف ما هو الإيمان، والآن عليّ مأن اهتمّ بما يجب القيام به". لذلك، ومن غير وعي تقريبًا، نتحوّل إلى مجال الأخلاق معتبرين محتوى الإيمان واضحًا. عندها لا يعود الوجه الثقافيّ للمسيحية حدوث الإيمان، بل القيم.

في مواجهة تحدّيات الحياة، لا يستطيع أحدٌ منّا أن يتجنّب تحديد ما هو أعزّ شيء لديه، وما هو المضمون الموجز لوعيه الذاتيّ: ما إذا كان حدوث الايمان أم القيم الاخلاقيّة.

يدهشني كم أنّ هذا الموقف، الذي نكتشفه مرّات عديدة في أنفسنا، ألا وهو اعتبار حدوث الإيمان أمرًا مفروغًا منه، لا يُجيب، لا بل يتعارض في الواقع وخبرة العيش الأوّليّة، كما تبيّن لنا باستمرار، على سبيل المثال، بعض الأغاني كأغنية مينا التي استمعنا إليها للتوّ، "لا مينتي تورنا" (تعود بي الذاكرة، كلمات موغول، ألحان باتّيستي). ماذا تقول؟ إنّك عندما تجيء، عندما يصل الأنتَ، "تعود بي الذاكرة". إنّك عندما "تتحدّث أنت معي:" فإنّي أنا. أتذكرون عندما ذكرنا غوتشيني؟ "لستُ أنا عندما لا تكون" (أغنية أوّدُ، من كلمات وألحان غوتشيني). فقط عندما تكون هناك تنتزعني من أفكاري. أي أنّ "أنتَ" الآخر هو جزءٌ لا يتجزأ من تعريف الأنا من أجل خلق الوعيّ الذاتيّ الذي تواجه به الأنا كلّ شيء. وبالتالي إنّ العلاقة مع "أنتَ" معيّن هي التي تجعل من الممكن وسيلة البقاء في واقع مختلف تمامًا، أكثر واقعيّة، يحدّده الوعي الذاتيّ الجديد الذي تثيره فينا. ولذلك، فإنّ الانتماء لهذا الـ "أنت" يحدّد الموقف الثقافيّ. أيُّ شخص يستمع إلى الأغنية يفهم على الفور ما هو أعزّ شيء بالنسبة للشخص الذي ألّفها: الأنت الذي يجعلني حقًّا أنا، وأخيرًا أنا.

---

[11] *Il senso di Dio e l'uomo moderno*, Bur, Milano 2010, pp. 131-132.

[12] L. Giussani, *L'uomo e il suo destino*, op. cit., p. 63.

[13] المرجع نفسه، ص. 63-64.

[14] المرجع نفسه، ص. 67.

تبيّن خبرة العيش الأوّليّة كم إنّي بحاجة إلى أنتَ لأكون أنا نفسي، لأكون أنا. والربّ الذي خلقنا يعرف جيّدًا كم أنّ الأنتَ خاصّته ضروريّ لأنانا. وفي محاولته جعل نفسه معروفًا من قِبلنا، "انقاد" السرّ الإلهيّ لهذه الخبرة الأوّليّة. فلكي يتواصل معنا جعل نفسه قابلا للاختبار وفقًا لشكل الخبرة التي تميّزنا، خبرة العلاقة مع أنتَ معيّن، بحيث يفهم كلّ إنسان من خلاله أهمّيّة أنتَ السرّ الإلهيّ لنفسه، ولحياته. في انقياده لطريقة الإنسان في التواصل، دخل الله الواقع داعيًا إبراهيم، لكي يخلق أنًا منسوجة كلّها من حضوره، وهو حضور لم يكن لمعاصري إبراهيم في بلاد ما بين النهرين تخيّله، كما قال في لقاء ريميني صديقنا الأستاذ جورجيو بوشيلاتو: لم يكن بإمكانهم مخاطبة القدر، مخاطبة المصير.

ماذا يعني كلّ هذا؟ أنّ اختيار إبراهيم أدخل عنصرًا جديدًا في التاريخ، فلم يعُد الإيمان مجرّد أمر عرضيّ وثانويّ، عبارة عن طقوس أو ممارسات عبادة، بل عنصرًا تأسيسيًّا لأنانا، لعيشنا في الواقع. ومردّ أنّ كلّ شيء قد بدأ مع إبراهيم هو رغبة الله: "دعونا نجعل الإنسان يعيش خبرتنا في أحشاء أناه، حتّى يمكنه أن يرى ما هي الأنا التي خلقتها. ولكن إذا لم ترتجّ خبرة حضوري داخل أحشاء رجل مثل إبراهيم، فإنّ الإنسان لا يمكنه معرفة من يكون، ولا يمكنه معرفة من أكون". تخيّلوا مدى الخبرة التي قام بها هوشع النبيّ حول هذا الحضور والتي جعلته يقول: "قد انقلب فيّ فؤادي، / واضطرمت مراحمي"[15]. هذا الإله، هذا الأنتَ، لديه كثافة حياة تجعله لا يستطيع أن ينظر إلينا، أن يتواصل معنا، من دون هذا الانقلاب، من دون هذا الاهتزاز، ومن دون هذا العطف على مصيرنا. بهذه الطريقة عرّف الإنسان بما هو الإنسان، لأنّ لا شيء يمكنه أن يوقظ الأنا مثل رؤية أنتَ (إلهيّ) يملك هذه العاطفة تجاه مصيرها. ولا عجب بعد ذلك من أنّ أولئك الذين أيقظهم هذا الأنتَ يستطيعون أن يقولوا، كما قال النبيّ إشعياء: "إلى اسمكَ وذِكركَ اشتياق النفس"[16]. وهذا يعني ألا نترك من تصوّر أنفسنا محتوى خبرة الإيمان. وإذا تركناه خارج الطريقة التي نقول فيها: "أنا"، فإنّ انتماءنا سوف يكون لكلّ شيء، ولكن ليس للسرّ الذي دخل حياتنا. وبالتالي فإنّنا نقدّم شهادة حول ما سوف نتمكّن من القيام به فحسب، حول ما سنكون قادرين على تخيّله، حول محاولاتنا، لكنّنا لن نستطيع أن نُظهر للملأ انتماءنا للسرّ، كما حدث لشخصٍ وصل إلى عمله فبادره زميله قائلا: "ماذا حدث لك؟ لماذا تبدّل وجهُك؟". لم يكن قد فعل شيئا، لكنّه بدا متغيّرًا في عيني زميله.

عندما طرحنا سؤالا للتأمّل به خلال العطلة: "متى اكتشفنا وتعرّفنا في تجربتنا إلى حضور في العيون؟"، لم يكن هدفنا توجيهه لأصحاب الرؤى الخارقة، ولا إلى أشخاص يبحثون عن تجربة روحانيّة معيّنة، بل إلى من فوجئ بنظرة إلى الواقع الذي يحمل داخله جديدًا، إلى أولئك الذين لا يعتبرون محتوى خبرة الإيمان أمرًا مفروغًا منه. من دون هذا الجديد، من دون حدوث هذا التأثير في أعيننا، ينتهي الأمر بالإيمان إلى اختزاله لممارسة عباديّة لا تحدّد وسيلة البقاء في الواقع، لا تحدّد الحياة.

من أجل تحقيق هدفه، كما يقول جوسّاني، "يتدخّل الله من الخارج كشرط خانق، وقضبان من القوانين، وقفص يُسجن فيه المرء، بل ينبثق من الداخل، كمصدر، وشراكة عميقة لا يمكننا من دونها أن نفعل شيئًا. ينبثق من داخل وجودنا، لأنّه أصل قوامنا وعلينا أن نأتي به إلى داخل الأمور التي تكوّن الحياة، لأنّ [الحياة] لن تكون خلاف ذلك بحياة. علينا اكتشافه واتّباعه إلى داخل واقع الوجود، لأنّه تعالى إله الأحياء، ومن دونه سيكون واقع الوجود عبارة عن شبه مظاهر، محدّدة كالجداول ورسميّة. وبهذه الطريقة نحن مدعوّون إلى اختبار معنى الإنسانيّ، الذي تذكره وتنتجه طريقة تجلّيه تعالى، وحضوره داخل الوجود التاريخيّ"[17].

عند قراءتنا تاريخ شعب إسرائيل، وقراءة تاريخ الكنيسة، وريثة هذا الشعب، يضعنا جوسّاني باستمرار أمام احتمالين. كلّ واحد منّا، في الماضي كما في الحاضر، يقف أمام خيار واضح: "قضبان من القوانين" أو "حضور داخل الوجود".

ولكن إذا كان حدوث الإيمان، ومضمونه العقائديّ، يُعتبر مفروغًا منه، وكلّ شيء يُختزل إلى تفسيرات أو جدليّة أو أخلاق، فأيّ اهتمام قد يثيره بعدُ فينا؟ لن يأخذ من وقتنا حتّى دقيقة واحدة. لأنّ أيًّا من جهودنا ومحاولاتنا يمكنه أن ينتج

---

[15] نبوءة هوشع 11، 8.

[16] نبوءة أشعيا، 26، 8.

[17] *Alla ricerca del volto umano*, Bur, Milano 2007, p. 31.

الجديد الإنسانيّ الذي يجذبنا المسيح من خلاله ويجعلنا نهتمّ به. لم يكن بإمكان إبراهيم أن يُنتج أنا مثل أناه، لو لم يأخذ السرّ الإلهيّ مبادرة جذبه صوبه. وبالمثل، لم يكن بإمكان يوحنّا وأندراوس أن يُنتجا ذلك الجديد الإنسانيّ الذي استقرّ في حياتهما بفضل اللقاء مع المسيح. إنّنا نجد أنفسنا اليوم، أكثر فأكثر، كلّ إنسان، كلّ واحد منا وأولئك الذين نلتقي بهم، أمام نفس الدوار: في هذه العدميّة التي تحيط بنا، في هذه الحالة من الفراغ المستشري حيث كلّ شيء يساوي كلّ شيء، هل هناك ما يمكنه أن يستحوذ علينا، أن يجتذبنا لدرجة تحديد كامل أنانا؟

هذا السؤال سبق أن أشار إليه البابا فرنسيس في رسالته إلى لقاء ريميني: أمام التخدير الغريب، "أمام خدر الحياة، كيف السبيل إلى إيقاظ الضمير؟"[18].

هذا هو السؤال الحاسم. معها يجب أن تتقارن كلّ الرؤى وكلّ الاقترحات، حتى تلك التي تخصّنا. فكلّ واحد منا، في كلّ تحرّك من تحرّكاته، يأخذ موقفًا أمام هذا التحدّي الجذريّ. كلّ منّا يجيب، ضمنًا أو صراحة، على هذا السؤال في طريقة نهوضه في الصباح، والذهاب للعمل، وعنايته بالأطفال وهلّم جرًّا. ما الذي يجعلنا، إذًا، نستيقظ من خدر الحياة؟

2. جاذبيّة الجمال

كما قلنا، إنّ الخبرة الأوّليّة للإنسان تحتاج إلى ما يستفزّها بشكل مناسب لكي تستيقظ. وبالمثل، فإنّ الإنسان يحتاجه للخروج من خدره. وكما يؤكّد دون جوسّاني، فإنّ "الخبرة الإنسانيّة الأصلية"، أي الحسّ الدينيّ، تلك المجموعة من البيّنات والمتطلّبات التي تجعلني إنسانًا، "لا تنشط إلا في شكل استفزاز. [...] أي ضمن طريقة يكون فيها ما يستحثّها"[19]. بالتالي، فإنّ المسألة الجذريّة حقًّا هي في أن يكون هناك، في أن يصلنا، استفزازٌ كافٍ يمكنه أن يساعدنا في بلورة تصوّر حقيقيّ عن أنفسنا. بما تمثّله من استفزاز، هناك بعض اللقاءات التي تحرّك بشكل كامل وعينا الأصليّ لأنفسنا، والتي تُنهض "الأنا" خاصّتنا من رماد نسياننا ومن اختزالاتنا.

وهذا ما يفسّر لماذا كتب البابا إلى لقاء ريميني، في مواجهة من ثبطت عزيمتهم من الوضع الحاليّ: "أمام الكنيسة ينفتح طريق رائع، كما كان عليه الحال في بداية المسيحيّة". هذا الوضع بالتحديد هو بالنسبة إليه فرصة "رائعة".

ما الذي أقنع زكّا ومتّى والمرأة السامريّة والزانية؟ أهي قائمة القوانين، المفروضة من الخارج، أم اختلاف الربّ؟ إنّنا نكتشفه من ردود أفعالهم، حيث قالوا: "لم نرَ قطّ شيئا كهذا" (مرقس 2، 12). أو: "ما نطق إنسانٌ قطّ بمثل ما ينطِقُ هذا الرجل " (يوحنّا 7، 46). لقد جذبتهم الخبرة التي كانوا يعيشونها مع المسيح - "المحتوى العقائديّ للمسيحية، الأنطولوجيا"، إذا ما استخدمنا تعبير جوسّاني - الذي كان ينقل إليهم سرّ شخصه، وليس القيم التي لم يكن حتى تلاميذه قادرين على فهمها. فقد قالوا أمام اقتراحه حول عدم انحلال الزواج: "إذا كان هذا هو وضع الرجل تجاه المرأة، فليس من المناسب أن يتزوّج المرء" (راجع متّى 19، 10). لماذا تابعوا السير وراءه؟ ولماذا لم ينظروا إلى غرابة يسوع كما إلى غرابة مهرّج؟ تكفي مجرّد قراءة للإنجيل مع هذا السؤال لإعادة اكتشاف كلّ شيء من جديد.

ألا يعود سببُ اعتبار البعض للمسيحيّين كمهرّجين، يقول جوسّاني، إلى اعتبارنا حدوث الإيمان مفروغًا منه وإلى نقلتنا نحو الأخلاق؟ يمكننا أن ندافع عن العقيدة الصحيحة وإعلانها بأعلى صوتنا أمام الجميع من دون أن يتأثّر الآخر، من دون أدنى تغيير لطريقته في النظر إلينا. يمكننا أن نعلن بأعلى صوتنا جميع دوافعنا السامية، وأن نستشهد بالقيم الأخلاقيّة الحقّة، من غير أن نكون قادرين على زحزحة الآخرين مليمترًا واحدًا. فهم، في الواقع، ينظرون إلينا كما لو كنّا مهرّجين. إنّ اختزال المسيحيّة غلى مجموعة من القيم أو القوانين يبدو لهم مهزلة، ونحن المسيحيّين مهرّجين، وجزءًا من السيرك.

هل هناك ما يمكنه أن يقوّض هذا الوضع؟ هل هناك ما يمكنه أن يمسّنا ويمسّ الآخرين بشكل عميق، أن يستحوذ على أعماقهم، لدرجة الكفّ عن اعتبار المسيحيّة مهزلة؟ نعم، هناك. لذلك حتّى اليوم، كما في زمن المسيح، هناك ما يمنع من اعتبار المسيحيّ مهرّجًا فـ "يُجبر" بالتالي من يلتقي به على بدء مسيرة لا أحد يعرف إلى أين ستقوده. روى لي صديق كاهن يعيش في إنكلترا: "قالت لي أمّ رأيتها عند الخروج من القدّاس مع طفلها الصغير، وله من العمر سنة

---

[18] البابا فرنسيس، رسالة للدورة السادسة والثلاثين من لقاء الصداقة بين الشعوب في ريميني، 17 أغسطس 2015.

[19] *Dall'utopia alla presenza.1975-1978*, Bur, Milano 2006, p. 193.

ونصف السنة: أوّد أن أتكلّم عن المعموديّة. لم يسبق لي أن رأيتها من قبل. وبعد أسبوعين ذهبت إلى بيتها وبدأنا في الدردشة. كما يحدث في كثير من الأحيان في إنجلترا، لم يكن الوالدان متزوّجَين. وكان الطفل قد وُلد في المختبر. وعلمت أيضًا أنّ لديهما جنين مجمّد آخر [هذا هو الوضع: طفل في الثلاجة]. قلت لنفسي: لا أستطيع أن أقدّم لهذين الزوجين قائمة بجميع الأشياء الصحيحة التي لم يقوموا بها، لكّن المرأة أتت إليّ بدافع من الاهتمام، على ما يبدو. فسألتها: لماذا أتيتِ؟. فأجابت: ״في الواقع لقد تعمّدتُ في طفولتي وعشتُ كمسيحيّة، وكان ذلك جميلا: المدرسة، الكنيسة، ولكن بعد ذلك تخلّيت عن ذلك. ومع ذلك أتمنّى هذا الشيء لأولادي״. كنتُ على وشك الرحيل، عندما توقّفتُ وقلت: أنا أفهم أنّ زوجك كان مريضًا، وكان لديكما العديد من المشاكل، ولكن أريد أن أقول شيئا واحدًا: إنّ الله، في واقع الأمر، لم يكفّ عن النظر إليكما، وهو لم يُخطئ ولم ينسَ ولم يهملكما. كما يحدث لكِ مع طفلك في كثير من الأحيان، فهو لا يفهم حركاتك والأمور التي تسمحين بها، ولكنّكِ في الواقع ترين الصلاح في داخله؛ كذلك الله نظر إليك دائمًا، وأنتِ ماثلة دومًا أمامه، ويريد أن يقوم بأمر عظيم في حياتك وحياة عائلتك من خلال الألم والأمور التي حدثت لك״. فبدأت تلك المرأة تبكي وبعد ذلك بدأت تأتي إلى الكنيسة كل يوم أحد. فأدركت أنّه لا يمكنني أن أنظر إلى قائمة القضايا الأخلاقيّة التي لم تمتثل لها، لأنّ المسألة كانت أن تجد فرصة لحياتها، كما حدث بالضبط؛ أمّا الباقي فسوف يجد حلا رويدًا رويدًا״.

يبدو لي أنّه مثال حول الانطلاق، في ما يتعلّق الآخر، من مضمون الإيمان وليس من الأخلاق.

وروى لي الصديق الكاهن قصّة أخرى: ״كتبت لي سيّدة رسالة بالبريد الالكترونيّ قائلة،״أودّ أن أنتمي إلى الرعيّة״. فذهبت لزيارتها وسألتها: ״لماذا تريدين أن تنتمي إلى الرعيّة״. فقالت: ״لأنّني أريد هذا الشيء لي ولأولادي״. ״وماذا يعني أنذك تريدين أن تنتمي إلى الرعيّة؟ أأنت كاثوليكيّة؟״. أجابت ״لا״. ״أأنتِ أنجليكانيّة؟״. أجابت ״لا، في الحقيقة لستُ حتّى معمَّدة״. ״آه، حسنًا، إذن [كما يحدث عادةً] زوجك مسيحيّ وأنتِ تقتربين من الإيمان من خلاله״. ״لا، لا، زوجي ليس كاثوليكيًّا، ولا أنجليكانيًّا، ولم ينل العماد هو أيضًا.״ ״إذن هم أهلك؟ لديك ارتباط ما مع الكنيسة، أليس كذلك؟ أعني، لماذا تريدين المجيء؟״ [أعلى درجات الفضول]. أجابت: ״سأقول لك الحقيقة. أنا مربّية أطفال، وأمّي كذلك، كلّ يوم نضع معًا ثمانية أو عشرة أطفال في منزل والدتي، وهو منزل كبير، ونهتمّ بهم بينما يكون أهلهم في العمل. في هذه السنوات من العمل رأيت أنّ أطفال مدرستم ورعيّتك مختلفون، وحتى أهلهم مختلفون. لذلك أريد هذا الشيء لي. ماذا عليّ أن أفعل؟״. قلت لها: ״سأعرّفك إلى بعض الأمّهات، وإذا أردت أن تأتي أيضًا إلى مدرسة الجماعة، فهناك أشخاص يستعدّون للمعموديّة، وهكذا نرى ما يمكننا فعله. يمكنكِ أن تأتي أيضًا إلى القدّاس، إذا أردتِ״. ״في الحقيقة، كنت أعتقد أنّه لا يمكنني المشاركة في القدّاس، وأنّه محظور عليّ كوني غير كاثوليكيّة؛ ولكن، في الواقع، ذهبتُ إلى هناك مرّتين سرًّا״. ״وماذا حدث؟״. ״كان الأسبوع الماضي مختلفًا لأنّ تلك التراتيل، تلك الأشياء ... هناك أشياء عديدة لا أفهمها، ولكن قد أفهم شيئًا واحدًا يغذّيني طوال الأسبوع״. أستطيع أن أعترف بأنّ هناك أناسًا يعودون إلى الإيمان لأنّهم تركوا الأحكام المسبقة ولم يعودوا يعتبرون الإيمان أمرًا مفروغًا منه، ولكن هنا الأمر مختلف، لأنّ هؤلاء الناس الذين أقابلهم لا يمكنهم حتّى اعتباره أمرًا مفروغًا منه، لأنّهم ببساطة لا يعرفون ما هو عليه، ولا يمكن بالتالي أن تكون لديهم أحكام مسبقة״.

عندما تُصادَف هذه الحياة المختلفة فإنّها تثير الانبهار، كما رأينا للتوّ. أو كما روى لنا الأب إبراهيم: ذهب مسلمٌ إلى بئر دير الفرنسيسكان في حلب وقال للأب إبراهيم: ״أبونا، عند مشاهدتي كيف يأتي الناس للحصول على المياه، بابتسامة وسلام كبير يغمر قلوبهم، دون مشاجرات، ودون صراخ... ، أنا الذي جلتُ في كلّ أنحاء حلب وأرى من يتقاتل للاستفادة من الآبار، أتعجّب: فالسلام والفرح يغمرانكم (...)، إنّكم مختلفون״[20].

الانبهارُ نفسه شهد به صديقٌ يعيش في ولاية كاليفورنيا، حيث قال: ״أعمل مع ذوي العاهات منذ الولادة ومع قدامى المحاربين الذين سبّبت لهم الحرب مآسيَ كبيرة. كلّ يوم أواجه قدرة تحمّل الإنسان، سواء منها البدنيّة أو العقليّة. لقد عانت امرأة في الأربعين، قضت حياتها في الجيش، من العنف الجسديّ أيضًا، لذلك اعتبرت السنوات الخمس عشرة الماضية من حياتها تخديرًا. وبسبب هذه الصدمات كان من المستحيل بالنسبة إليها أن تعيش علاقة إيجابيّة مع الواقع: فهي غير قادرة على الذهاب إلى السوبر ماركت، لأنّها تخشى من أن يعتدي عليها أحدٌ بينما تقطع الممرّات. ولم يكن

---

[20] «Il profumo di Cristo tra le bombe», *Tracce*, n. 8/2015, p. 26.

بإمكانها الاحتفاظ بوظيفة؛ فقد كانت تستيقظ في الثالثة صباحًا على زقزقة العصافير: "كدتُ أجنّ، لو كان بمقدوري لقتلتها جميعًا! هذا لا يُطاق". وقبل شهر، بعد سنة من متابعتنا لهذه المرأة، والعمل معها (بمعنى تعليمها مهنة) والعيش معها، قالت لنا: "استيقظ في الساعة الثالثة صباحًا. ما زلت لا أستطيع النوم، لكنّني الآن بدأت أحبّ، وأنظر بحبّ إلى العصافير التي تغنّي. لماذا؟ لأنّه كانت هناك نظرة إليّ أيقظت كلّ الانتظار في قلبي". ويضيف صديق كاليفورنيا: "هذه المرأة ليست منتمية إلى الحركة، لكنّها استخدمت هذه الكلمات:" قلبي الآن حيّ". لماذا؟ "لأنّني رأيت شخصًا وشيئا أيقظ في داخلي كلّ إمكانيّة في أن أكون أنا نفسي". لقد جعلني جمال هذا العام، وخصوصًا اللقاء مع البابا، أدرك أنّ مسؤوليّتي الوحيدة هي أن أعيش الحياة داخل الشيء الجذّاب الذي وصلني، وأترك الباقي للربّ، لأنّه هو من يغيّر حياة الآخر. قبل أسابيع قليلة تلقّيتُ دعوة إلى محاضرة مع زميلة لي للحديث عن أنشطتنا. عادةً، عند التعريف بالمحاضرين، يذكرون ما فعلت، ماذا تفعل والشهادات التي تحملها . فبدأ شخص يصف من نكون، والشركة التي نعمل فيها، ولكن في لحظة معيّنة توقّف وقال: "على أيّ حال، غويدو ونانسي هما قلب ما نقوم به." وهذا ما أثّر فيّ كثيرًا: لقد عشت ببساطة - وهو أمرٌ مثير للدهشة – من دون إلقاء الخطب، ومع هذا فقد قدّمني شخصٌ لا يعرف عنّي شيئًا قائلا: "أنا أتطلّع إليك من أجل القلب الذي تعبّر عنه، والذي هو صُلب ما نقوم به". أن يقول أحدٌ عنك، لدى رؤيتك: "أنا أتماهى مع القلب الذي تعبّر عنه" لهو على ما أعتقد أعظم شهادة يمكن أن تُعطى والتي تأتي من العيش في جاذبيّة اللقاء مع المسيح".

ما الذي غيّر هذه المرأة، التي كان عليها أن تعيش علاقتها بالواقع بطريقة مشوّهة؟ غيّرها العنصرُ الجديد الذي دخل التاريخ مع إبراهيم، والذي وصل إلينا ويتنقل من خلالنا، دون أن نفعل شيئًا تقريبًا. ونحن نعطيها إيّاه ببساطة من خلال العيش معها. والنتيجة بسيطة: "بدأت أحبّ حتّى العصافير"، هي نفسها التي كانت تودّ قتلها من قبل. وهذا يعني أن الحضور الإلهيّ الذي يمرّ من خلالنا قادرٌ على تغيير الحياة: إنّه من الأهمّية بمكان بحيث إنّنا نفقد كلّ شيء من دونه، كما تقول أغنية أخرة لمينا: "ماذا لو غدًا (...) فقدتك فجأة / لخسرتُ العالم كلّه، وليس أنت فقط"[21].

بدون هذا الأنتَ تفقد الأنا العالم بأسره. تفقد كلّ شيء. لكنّنا نعتقد، يقول دون جوسّاني ، أنّ هذا أشبه بخرافة! "عندما يستيقظ المرء في الصباح، عندما يواجه الصعوبات أو خيبات الأمل، القلق أو الحوادث الطارئة، فإنّ صورة آخر (إلهيّ) يرافق [الحياة] (...) وينحدر إليه [كما هو] لإعادته إلى نفسه، لهي أشبه بالحلم"[22]. لذلك، وفي كلّ الأوقات، يقوم كلّ واحد منّا باختبار: فالبادرة التي تصدر عنه تكشف ما إذا كان المحتوى العقائديّ للإيمان حقيقيّ، أو مجرّد خرافة وحلم. وهذا يحدّد ما ننتمي إليه. قد نكون مشتّتي الفكر، قد نظلّ مع كلّ قيودنا، لكنّ الواقع (الإلهيّ) يمرّ عبرنا، إذا حدّدَها مضمونُ الإيمان. فنحن نحمله في داخلنا إلى حدّ أنّه يوقظ في الآخرين مودّة نحو الواقع.

عندما لا نعيش علاقة كاملة من المودّة نحو الواقع، عندما نعقّد أمور حياتنا ونعتبر العلاقة بالواقع بمثابة عنف، فهذا لا يعود إلى أنّ العصافير قبيحة أو لأنّ الظروف تعمل ضدّنا، أو بسبب المرض أو لأنّ رئيسنا أو أيًّا كان لا يفهمنا، أو لأنّ كلّ شيء خاطئ أو سيّئ. كلا! المشكلة تكمن في أنّ الأنت غائب، ذلك الأنت الذي يجعل من الممكن أن يصبح كلّ شيء - كلّ شيء! – صديقًا لي، حتّى الطيور التي أرادت المرأة أن تقتلها.

علامَ تبرهن هذه الشهادات؟ ما الذي لم يجعل الأشخاص الذين التقيناهم يعتبرون المسيحيّة مهزلة والمسيحيين مثل المهرّجين؟ جديد الحياة الذي أحسّوا به، من داخل وجودهم. في سيرك العالم، بكلّ ممثّليه وبكلّ مهرّجيه، بكلّ التفسيرات الرائجة، في هذا العالم حيث كلّ شيء "سائل" – كما يقول باومان – وكلّ شيء سيّان، ما هو الشيء الحقيقيّ بقوّة، والجذّاب لدرجة امتلاكنا تمامًا، والذي لا نريد أن نفقده؟

يؤكّد دون جوسّاني على أنّ "الإنسان يعترف بحقيقته من خلال تجربة جمال، من خلال تجربة طعم، من خلال تجربة تبادل، من خلال تجربة جذب تثيرها، جذب وتبادل كامل، ليس كاملا من ناحية الكمّيّة، بل من ناحية النوعيّة! (...) فجمال الحقيقة هو ما يجعلني أقول: "هذه هي الحقيقة!"[23]. فالجاذبيّة تعني: "أنا أجذبكَ نحو"، أي أنّه يتمّ نقلك من خارجك نحو آخر.

---

[21] *E se domani*, parole G. Calabrese, musica C.A. Rossi.

[22] L. Giussani, *Alla ricerca del volto umano*, op. cit., p. 27.

[23] *Certi di alcune grandi cose. 1979-1981*, Bur, Milano 2007, pp. 219-220.

ولهذا قال إنّ "إنسان اليوم، بقدراته العمليّة غير المسبوقة في التاريخ، يجد صعوبة كبيرة في إدراك المسيح كجواب واضح ومحدّد لمعنى براعته بالذات. والمؤسّسات في كثير من الأحيان لا تقدّم مثل هذا الجواب بشكل حيويّ. فما هو مفقود ليس التكرار اللفظيّ أو الثقافيّ للبشارة [لا تكفي العقيدة، ولو كرّرناها بشراسة، ولا مجرّد قائمة من الأشياء التي يتعيّن القيام بها]. فإنسان اليوم يتوقّع ربّما من دون وعي خبرة اللقاء بأشخاص يعتبرون حقيقة المسيح واقعًا حاضرًا لدرجة أنّ حياتهم قد تغيّرت. [إنّ ما يهدم سيرك المهرّج هو واقع المسيح، وهو واقعٌ حاضر لدرجة تغيير حياة الأشخاص الذين يلتقي بهم على دربه]. إنّه تأثير ووقعٌ بشريّ يمكنه أن يهزّ إنسان اليوم: حدثٌ يكون صدى للحدث الأصليّ، عندما رفع يسوع عينيه وقال: «يا زكّا، انزل على الفور، إنّي قادمٌ إلى منزلك"[24].

أين يمكنني أن أجد هذا الجمال الذي يجذبني موقظًا نفسي؟ كيف يمكن للأنا، الضائعة في الملل والخمول، أن تجد نفسها؟ هذا ما قاله لنا دون جوسّاني بشكل نهائيّ وحاسم: "يجد الشخص نفسَه في لقاء حيّ، أي في حضور يرتطم به ويُطلق جذبًا، في حضور يكون استحثاثًا لنفسه. يُطلق جذبًا، أي إنّه يحثّ على حقيقة أنّ قلبنا، بما يتألّف منه، وبالمتطلّبات [كلّها] التي تشكّله، هو موجود. ذلك الحضور يقول لك: "إنّ ما يكوّن قلبك موجود. انظر، على سبيل المثال، إنّه يوجد في داخلي". إن الجذب والحثّ على صميم أنفسنا ممكنان فقط بهذا الشكل"[25].

إنّ اللقاء بهذا الحضور يُطلق جذبًا، يُشعل الشرارة.

3. الشرارة

يقول جوسّاني "إنّ الحقيقة هي مثل وجه امرأة جميلة، فلا يمكنك ألا تقول إنّها جميلة، لا يمكنك! [مفروض] ولكن بصرف النظرعن المقارنة، الحقيقة هي شيء يفرض نفسه حتمًا. في جزء من اللحظة يرتعش القلب. وهو ما دعوته بالشرارة. (...) وهذه الشرارة، ذلك الحدس أنّ ذلك الأمر حقيقيّ لنفسه، ربّما المتناثر، ربّما الضبابيّ، والمشوَّش – ولكن من الخطأ أن نقول عنه مشوّش [يستدرك]. فهو ليس مشوَّشًا؛ وعلى الأقلّ لبُرهةٍ، كان شرارة، ولذلك ليس مشوّشًا – هذه الشرارة قد أثارت، ربّما بشكل متناثر، شعورًا أو عاطفة وجدنا فيها أنفسنا، حتّى من غير وعي، "ممتنّين ومنبهرين بما حدث" كما قلتم. كما لو أنّ تلك الشرارة قد أبانت فقرًا في الروح (بمعنى "المساكين بالروح"، ملاحظة المترجم)، قليلا، قليلا جدًّا، قدر ذرّة غبار، من فقر الروح. كما لو كانت تلك الشرارة بمثابة نار، جمرة من النار وصلت إلى العظام، وكشفت عظامنا، أي قلبنا، فعبرت جسدنا وولدت لحظة، تجربة، من فقر الروح وبساطة القلب ("ممتنّين ومنبهرين بما حدث")". ويخلص دون جوسّاني إلى القول: "إن الشرارة، هذه الشرارة، هي بداية وعي جديد لأصل ذاتنا"[26].

عندما يكتشف أحدٌ ما هذه الشرارة فينا، فإنّه يكفّ عن اعتبارنا مهرّجين.

يكتب إحد الطلاب الجامعيّين من كلّيّة الهندسة المعماريّة: "كنّا منهمكين بإعداد معرض عن كاتدرائيّة فلورنسا. وعند وصولنا إلى جناحنا استقبلنا المهندس الذي صمّم المعرض وكان عليه أن يعمل معنا خلال الأسبوع السابق للقاء ريميني قائلا: "مرحبًا يا شباب، أنا لا أنتمي إلى حركة شراكة وتحرّر، فقد كلّفوني بمتابعة هذا المعرض وأنا هنا للعمل معكم". وما إن انتهى من كلامه حتّى ارتدى سروالا قصيرًا وشرع يعمل معنا: من الطلاء إلى نقل الأغراض إلى وضع المعجون ... وفي المساء أتى ليأكل معنا، حيث يلتقي جميع المتطوّعين. عمل معنا، وأكل معنا، واستمرّ الوضع على هذا المنوال لمدّة خمسة أيام، فنشأت بيننا علاقة جميلة. وفي يوم الأحد أخبرنا أنّه مضطرّ للعودة إلى فلورنسا للعمل وأنّه لن يعود. وكانت المفاجأة الكبرى صباح الثلاثاء عندما رجع وعاد إلى العمل معنا، سعيدًا. "يا شباب، لقد عدت لأنّني شعرت بالشوق إليكم! أنا لم أرَ قطّ أشخاصًا يعملون بهذا الشكل. لديكم شيء لا يملكه الآخرون. كان لي العديد من الأحكام المسبقة حول شراكة وتحرّر قبل مجيئي إلى هنا، ولكنّي كنت أركّز على أمر واحد دون النظر إلى ما عداه".

ويروي شخص آخر قائلا: "في تلك الأيام السبعة من العطلة استطاع كلّ منّا أن يفكّر بحقيقة أنّ مجالا آخر قد انفتح

---

[24] L. Giussani, Intervento al Sinodo, 1987; in Id., *L'avvenimento cristiano*, Bur, Milano 2003, pp. 23-24.

[25] *L'io rinasce in un incontro. 1986-1987*, Bur, Milano 2010, p. 182.

[26] *Certi di alcune grandi cose. 1979-1981*, op. cit., pp. 207-208, 215.

بيننا، وعندما يحدث ذلك فمن المستحيل ألا تلاحظه. ولاحظ ذلك أيضًا ثلاثة أصدقاء صينيّين يدرسون معنا في الجامعة ضمن مشروع للتبادل الثقافيّ مدّته سنتين، كنّا قد تعرّفنا إليهم قبل بضعة أشهر. لقد تأثّروا بكلّ ما حدث. أوّلا وقبل كلّ شيء، بحقيقة أنّ من الممكن إرساء ألفة حقيقيّة بين أشخاص بعيدين جغرافيًّا. لم يحدث لهم أن تمّ استقبالهم واحتضانهم بهذه الطريقة. رأوا خلال عملها "محبّة أثّرت بهم." وقال ماثيو، بناءً على ما شاهده، أنّ الفرق بين الكاثوليكيّة والبوذيّة هو أنّ الديانة الكاثوليكية عبارة عن حياة، وليست سلسلة من الطقوس التي يتعيّن القيام بها، وأنّه يشعر بانجذاب أكبر بكثير نحو هذه الحياة التي شهدها تفعل فعلها".

قضت صديقة من الجامعة كلّ الصيف مع رفاق آخرين، بعد أن طلب منها الأستاذ المشاركة في أحد المشاريع. وفي أحد الأيّام عرضت على أصدقائها ما يلي: "يا شباب، هناك شيء جميل من الضروريّ جدًّا أن تروه". وكان ذلك لقاء ريميني. وهنا ما حدث: "بفضل ثمرة كلّ الصداقة التي نشأت، جاؤوا وذهلوا. ذهلوا لرؤيتي أنا أيضًا مذهولة، على الرغم من أنّني أعرف الاجتماع، لأنّني نظرت إليه من خلال عيونهم. كان يومًا رائعًا، مليئًا باللقاءات. وكانوا في منتهى السعادة. وعندما كنّا في السيّارة، في طريق العودة، نظرت إليّ الفتاة اليونانيّة وقالت: "ولكن ما بهم هؤلاء الناس؟". فقلت لها: "لا أدري، ما بهم؟ قولي لي بنفسك". فقالت: "إنّهم أحرار. إنّهم سعداء". ثم قالت: "هؤلاء الذين قدّمتِهم لي كانت هناك شبه ابتسامة لعوب في عينيهم. هناك ابتسامة لعوب في عينيهم وهم أحرار كالأطفال الصغار". وكانت تصرّ على أن أشرح لها شأن تلك الابتسامة اللعوب في عينيهم التي رأتها. عندها قلت لها إنّه نفس السؤال الذي تبادر إلى ذهني عندما تعرّفت إليهم: ما هي هذه الابتسامة؟ وهكذا أخبرتها بما حدث لي، وكيف عدتُ إلى الإيمان، وقلت لها إنّ أولئك الأشخاص كانوا كاثوليك، فأصابتها الصدمة وأضافت: "إذن المسيحيّة هي لقاء! لأنّني لا أحبّ القواعد، ولكن ما تقولينه أنتِ عبارة عن لقاء، وأنا مستعدّة لاتّباع تلك الابتسامة في العينين حتّى أقاصي الأرض، لأنّني أريدها".

لو لم تقبل صديقتنا الشابّة صيفًا مختلفًا لم يكن متوقّعًا، لما كان بإمكانها أن ترى ما رأته. وماذا رأت؟ ما هي ردّة فعل شخص غير معروف تقريبًا تجاه أشخاص أحرار وسعداء ترتسم ابتسامة في أعينهم. الشرارة يحملونها في أعينهم. "من أين هذه تأتي تلك الابتسامة في العيون؟" تساءلتْ. هل لأنّهم شاطرون؟ في عيونهم ترتسمُ سماءٌ ليست سماءهم. إنّهم "مثل الأطفال الصغار." وهم منبهرون بتلك السماء. ماذا يجب أن يحدث ليصبح الراشد "طفلا"؟ لم تكن تلك الفتاة تعرف شيئًا عن المسيحيّة، لكنّها تقول: "أنا مستعدّة لاتّباع تلك الابتسامة في العينين حتّى أقاصي الأرض". ليست ههنا من مهزلة! ليس هنا من مهرّج! فهذا يحدث الآن، تمامًا مثلما حدث قبل ألفي سنة.

تعليقًا على دعوة القدّيس متّى، قال البابا فرنسيس خلال رحلته الأخيرة إلى كوبا: "إنّه يروي لنا بنفسه، في إنجيله، كيف كان اللقاء الذي ترك أثرًا في حياته، فيقودنا إلى "تبادل نظرات" قادر على تحويل التاريخ. [التاريخ! وليس فقط ذلك الرجل] في يوم كغيره من الأيّام، وبينما كان جالسًا إلى منضدة تحصيل الضرائب، مرّ يسوع ورآه، فقال له: "اتبعني". فنهض وتبعه. نظر إليه يسوع. يا لقوّة الحبّ في نظرة يسوع حتّى تزحزح متّى كما فعلت! يا لتلك القوّة في عينيه لكي تدفعه إلى النهوض! نحن نعلم أنّ متّى كان عشّارًا، أي أنّه كان يجبي الضرائب من اليهود ليعطيها إلى الرومان. ولم يكن جباة الضرائب محبوبين، لا بل كانوا يعتبرونهم خطاة، وبالتالي كانوا معزولين ومنبوذين من قبل الآخرين. لم يكن بالإمكان تناول الطعام معهم، ولا التحدّث ولا الصلاة. وكان الناس يعتبرونهم خونة، ينتزعون من شعبهم ليعطوا الآخرين. كان العشّارون ينتمون إلى هذه الفئة الاجتماعيّة. وتوقّف يسوع، فلم يمرّ على عجل، ونظر إليه بتمعّن، نظر إليه بسلام. نظر إليه بعين الرحمة. نظر إليه كما لم يفعل أحد من قبل. وتلك النظرة فتحت قلبه، حرّرته، أبرأته، أعطته أملا وحياة جديدة، ومثله لزكّا، وبارتيماوس، ومريم المجدليّة، وبطرس، وكذلك إلى كلّ واحد منّا"[27].

واليوم، كما في الماضي، هناك حقائق وطرق لعيش المسيحيّة لا ينظر إليها الغير كمهزلة، بل كالشيء الأكثر روعة. في هذه الحقائق يتطابق المحتوى والنهج. وهي حقائق لا تحتاج إلى أيّ نوع من السلطة لتفرض نفسها: تكفي جاذبيّة تلك "الابتسامة اللعوب في العينين"، يكفي "تبادل النظرات". لا دواء ولا عقار ولا ساحر ولا قوّة ولا نجاح ولا استراتيجيا بإمكانها أن تنتج هذه الابتسامة اللعوب في العينين.

---

[27] فرنسيس، العظة في بلاثا دي لا ريفولوثيون (ساحة الثورة)، هولغين، كوبا، 21 أيلول/سبتمبر 2015.

وهذا يدفعنا إلى القرار. "يتولّد القرار من خلال اكتشافنا أنّ الأنا يجذبها آخر، وأنّ جوهر أنايَ، جوهر كياني، قلبي، يتطابق مع "الانجذاب إلى آخر" (...) . وهذا الآخر هو معنى ديناميّة أنايَ، حياتي، هذه الديناميّة التي هي حياتي. عندما أقول "أنا"، أعني ديناميّة تتوق إلى شيء آخر، إلى شخص آخر. آخر هو ما يشكّل حياتي، لأنّ الآخر يجذبني وأنا هو "المنجذب"، الذي شكّلته تلك الجاذبيّة (...) ["أنا مستعدّة لاتّباع تلك الابتسامة في العينين حتّى أقاصي الأرض"] . يتولّد القرار، بالتالي، حيث يكتشف المرء طبيعته هذه، كونه "منجذبًا"، ولهذا، كما يقول القدّيس بولس (المذكور دائما): "لستُ أنا أحيا بل شيء آخر يحيا فيّ". فالجذب هو في الواقع شيء آخر يحيا فيّ ويجعلني أعيش. يتولّد القرار عندما ينبثق هذا الإدراك، وهذا الوعي حول الإنسان الجديد، وعي هذا الجديد في تصوّرنا لذاتنا، في شعورنا بذاتنا. وتلك هي لحظةٌ يكوّن فيها المرء نفسه حقًّا – كما يكوّن الرجل والمرأة الطفل، وهما إنّما يكوّنانه بفعل جذب –. قد لا يكون المثال صارخًا، ولكن هذا هو التشبيه الأكثر عمقًا الذي يمكن القيام به. إنّ مفهومًا للذات هو ما ينبع حقًّا من هذا العناق العميق لأنايَ مع الآخر (الإلهيّ)، الذي اكتشفُ وأقبلُ وأعترفُ بجاذبيّته. وهذا لا يحدث من دون بساطة القلب، من دون نقاء القلب، من دون فقر الروح (بمعنى المساكين بالروح)، لأنّه حيث لا يوجد فقر الروح، نخضع للجذب لكنّنا لا نتعرّف إليه بشكل كامل: فهناك تحفّظ، وبالتالي ليس هناك من "تنازل"[28].

هذه هي الديناميّة التي تجعلنا نفهم معنى الاتّباع. أقول هذا ردًّا على الشخص الذي سألني: "ما هو الاتّباع؟". فالاتّباع، مثله مثل اتخاذ قرار، سهل: "أنا مستعدّة لمتابعة تلك الابتسامة في العينين حتّى أقاصي الأرض". لماذا من السهل أن نتبع؟ لأنّه انقياد للجذب الذي تملّكني. والمشكلة هي أنّ الاتّباع، في العديد من المرّات، لا يعني بالنسبة لنا الانقياد إلى الحدث الذي تملّكنا، مع كلّ وعينا لما يحدث. فيصبح اتّباعنا نوعًا من التطوّع، والتكيّف مع معايير معيّنة، مع عقيدة، مع مجموعة من القيم ندافع عنها. في حين يبيّن لنا دون جوسّاني أنّ الاتّباع هو خطوة، وهو قرار، نابع من الجذب، لأنّ مشكلة الحرّيّة تكمن في ما إذا كانت تجد شيئًا رائعًا يجعلك ترغب بالانتماء إليه! كما لو أنّ علينا، عند كلّ كلمة، وأمام كلّ تحدٍّ نواجهه، أن نتعلّم باستمرار طبيعة الإيمان، وطبيعة المسيحيّة، والأنطولوجيا الخاصّة بها. لأنّه خلاف ذلك حتّى الكلمات المسيحيّة تصبح مثل الحجارة التي لا تعني لنا شيئا. بينما يكفي لفهمها أن نترك أنفسنا تتفاجأ بتلك اللحظات التي يقع فيها الحدث، التي يقع فيها الجمال، كما رأيناه يحدث بشكل مثير جدًّا في لقاء ريميني، خلال اللقاء حول إبراهيم وتحدّيات الحاضر، عندما انتهى البروفيسور ويلر من من الاستماع إلى الكمان فاقترب من الميكروفون وأطلق نفسًا عميقًا ثمّ أضاف: "تلزمنا دقيقة لاستعادة أنفاسنا"[29]. هوذا! هذه هي اللحظة التي ننطلق فيها من جديد. من هنا نبدأ من جديد. والاتّباع يأتي من هنا: فجاذبيّة الكمان فجّرت نفسًا عميقًا. إنّه سهل! والاتّباع بدوره، مثله مثل اللقاء الأوّل، هو حدثٌ ينبغي قبوله.

ولكن لماذا يبدو لنا شديد الصعوبة إذا كان سهلا إلى هذا الحدّ؟

المشكلة هي أنّنا كثيرًا ما نقاوم هذا النهج، وهو نهج الله. وهذا أمرٌ محزن حقّا، فعلى الرغم من أنّ أشياء كتلك التي سمعناها للتوّ تقع، ومن أنّنا نخبر بعضنا البعض عن غيرها في كلّ مرّة نلتقي فيها، إلا أنّنا نقاوم ولا نتعلّم منها. وهذا يعني عدم الاتّباع. لا أعني عدم اتّباعي أنا – فما أهمّيّة ذلك؟ - بل عدم اتّباع ما يفعله الربّ، الذي أريد أنا أوّلا أن أتبعه. هذه هي مشكلتنا مع الاتّباع: أنّنا، وعلى الرغم من أنّنا نرى باستمرار أنّ الحدث، أنّ اللقاء هو النهج الوحيد القادر على تحريك الأنا - وهو ما فعله الله مع إبراهيم ويوحنّا وأندراوس -، ما زلنا نعتقد أنّ هناك طريقة أخرى، ونهجًا آخر أكثر تأثيرًا لاجتذاب الأنا. بينما الأمر سهلٌ: فما عليك سوى اتّباع ما يفعله المسيح.

"في إحدى الليالي كنّا نتحدّث مع زملائي عن الأسرة وكانت هناك فتاة لا تستطيع أن تفهم. إلا أنّها تغيّرت عندما أخبرتها بما حدث في عائلتي. فقد كنت هربت من المنزل عدّة مرّات، وتجاسرت على والدي ولمدّة عامين لم أتحدّث إليه. ولكن ما غيّر عائلتي لم تكن قوانين معيّنة أو ثورة ما، بل اللقاء الذي حدث لي قبل أربع سنوات مع أصدقائي في الحركة. ففي عيشي داخل هذه العلاقة، حيث كلّ ما عندي من الشرّ كان مغفورًا، في عيشي جمالا وحماسًا جديدًا للحياة، ازهرت عائلتي من جديد. لقد غيّرت تلك العلاقة شخصي وغيّرت من حولي دون أن أتابع أنا ذلك. وأخبرتها عن ابنة عمّ لي، تعيش وعائلتها في مدينة أخرى وتأتي كلّ عام لقضاء العطلة معنا. وفي العام الماضي جاؤوا في عيد

---

[28] L. Giussani, *Certi di alcune grandi cose. 1979-1981*, op. cit., pp. 216-218.

[29] «La scelta di Abramo e le sfide del presente», *Tracce*, n. 8/2015, p. X.

الميلاد، فاكتفينا بتناول الطعام وفتح الهدايا معًا. وبعد الغداء، جاءت ابنة عمّي وقالت لي: "لديّ انطباع بأنّ والديّ يعيشان معًا من أجلي، وليس لأنّهما يتبادلان الحبّ، بينما أرى أنّ عائلتك موحّدة، وأنا أرغب بنفس الشيء". وفيما كانت تقول لي هذا فكرّت: ولكن ما الذي رأته؟ فحتّى بضع سنوات خلت كانت عائلتي بعيدةً كلّ البُعد عن الوحدة؛ ولم أكن أتناول الطعام معها قبل وصولي إلى ميلانو. فقد دُهشتْ من طريقة تناولنا الطعام. ثمّ قالت لي: "عندما كنّا أطفالا كنّا نلعب، ثمّ أصبحتَ شرّيرًا، لكنّني الآن أرى أنّ عينيك قد عادتا مثل عيني الطفل". فصدمتني هذه الملاحظة، ثمّ دعوتها ببساطة للقيام بأعمال خيريّة مع أصدقائي، وذهبنا بحزمة الموادّ الغذائيّة لسكّان الأحياء الفقيرة. وأخبرتني بعدها أنّ عصر ذلك اليوم كان الأجمل في حياتها. وفي اليوم التالي لعودتها إلى منزلها، اتّصلت بي وهي تبكي: "أشعر بشوق لم أشعر به قطّ". في البداية بدا لي الأمر وجدانيًا بعض الشيء، لكنّها أردفت قائلة: "هذا الصباح استيقظت في الساعة السابعة، وذهبت إلى وسط المدينة، إلى مركز البلديّة، وسألت شبّاك الاستعلامات عن مكان أعضاء شراكة وتحرّر".

وبعدها نعتقد أنّ لدينا نهجًا أقوى، وأكثر تأثيرًا تاريخيًّا لإقناع الناس! لذلك أسألكم: هل يعتقد أحدٌ منكم حقًّا أنّ النهج الذي نتصوّره نحن قد يكون أكثر تأثيرًا من النهج الذي اختاره الله؟ لا يمكننا أن ندّعي أن نسترجع بأفعالنا ما فقدناه في الحياة. هذه هي إذًا مسؤوليتنا: ألا نقاوم نهج الله.

مرّة أخرى يساعدنا دون جوسّاني على الرؤية بوضوح عبر تحديده السبب الرئيسيّ لهذه المقاومة، التي ليست، كما قد نتصوّر، عدم التناسق، بل الجفاف العاطفيّ. " إنّ النقص الجذريّ لدينا، إنّ ما يترك لنا هذه الخلفيّة من التردّد هو عجزنا، وغياب نضجنا، في تذوّق طعم الجمال، والحسّ الجماليّ، وبالتالي فهي مقاومة هائلة لما يقودُنا إلى الفرح، والسعادة، وبالتالي إلى الحيويّة – أجل، الحيويّة! -. لأنّ وحده ما هو جميل، ما يبدو لك جميلا، ما يجعلك كائنًا حيًّا، أي ما يحفّز طاقة حياتك، هو حياتك. هذا هو النقص الفظيع الذي يُلاحَظ فيكم، أنتم شباب اليوم، النقص الهائل في الانبهار بالجمال، في القدرة على تقبّل الجمال. أمّا ما يصدمكم فهو ما يثير فيكم ردّة فعل. فالأشياء التي تصلكم تثير ردّة فعل تحصركم في أنفسكم، بحيث أنّ كلّ ما هو أمامكم إنّما هو لاستخدامكم الشخصيّ، وخاضع للاستغلال. أمّا الانبهار وتقبّل الجمال فالعكس تمامًا: عيونٌ (...) جاحظة للاستماع، والمشاهدة، والتلقّي. (...) لديكم [قالها للجامعيّين في عام 1980] عجز في الوجدان" ناجم عن الغلظة. أمّا الشرارة التي تحدّثنا عنها، يتابع دون جوسّاني "فهي شيء يحدث ونشعر به على قدر قدرتنا العاطفيّة، أي على قدر قدرتنا الجماليّة. ذوقنا الجماليّ، حسّنا الجماليّ، أي على قدر قدرتنا على تقبّل الجمال. في حين أنّ فقر القلب، أو بساطة القلب، هو الموقف الأخلاقيّ الذي يسمح بتنمية الجماليّة. لاحظوا كيف يرى الطفل الأشياء: بعينين جاحظتين! فجمال الواقع واهتزازه يتدفّقان فيه كالشلال. أمّا نحن الموجودين بالقرب منه فتتملّكنا الغلظة"[30]. هذه الغلظة هي ما يجعلك تشعر بالغرابة التي ذكرها الشاعر تشيزاري بافيزي: "ترتسم في عينيكَ / غرابة سماءٍ ليست سماءَك"[31]. حيث علّق دون جوسّاني كما يلي على هذه السطور: "ترتسمُ في عينيكَ: أي أنّك مجبول من السماء، وللسماء، من قِبل آخر؛ وهي ترتسم فيك لأنّ القلب هو توقٌ إلى السعادة والجمال. لكنّ السماء ليست سماءك: أي أنّك لا ترغب بها"[32].

عندما نردّ على تحدّيات الواقع، فإنّنا نسمح دائمًا بظهور انتمائنا، أي أغلى ما عندنا، بكلّ شفافيّة وهذا يصبح موقفنا الثقافيّ في العالم. لقد دهشتُ كيف أنّ دون جوساني ، بعد أيّام قليلة على هزيمة الاستفتاء حول الإجهاض في عام 1981، قد حدّد في حديثه إلى جمع من قادة الحركة، المحتوى المختصر للوعي الذاتيّ لدى الذين نشطوا، أعزّ ما لديهم ، والذي نبع منه الموقف الثقافيّ: "إنّ النقطة الرئيسيّة في تسيير عمل الحركة، والناتجة عن هذا الاستفتاء، هو الحزن، كلّ الحزن لرؤية أنّ حدث المسيح لا ولم يلعب دورًا باعتباره قيمة الحياة." وأضاف أنّ ما حدث خلال الاستفتاء كان تعبيرًا عمّا يحدث في حياة الجماعات العاديّة: "في حياة جماعاتنا الطبيعيّة وتسيير عمل الحركة لا وجود

---

[30] *Certi di alcune grandi cose. 1979-1981*, op. cit., pp. 220, 223.

[31] C. Pavese, «Notturno», da *Lavorare stanca, 1936-1943 (Le poesie aggiunte)*, in *Le poesie*, Einaudi, Torino 1998, p. 82.

[32] *Si può vivere così*. Esercizi della Fraternità di Comunione e Liberazione. تدوينات من تأملات دون جوسّاني suppl. *Tracce* n. 6/1995, p. 25.

شفّاف لقيمة الإيمان. باختصار، لا علاقة ليسوع المسيح بجماعتنا".
وأبان لنا أيضًا بدقّة الطريق الذي ينبغي سلوكه. من الجدير بالاستماع إليه، إذا كنّا لا نريد أن يفوتنا القطار مرّة أخرى، "يجب أن يكون ليسوع المسيح يقينٌ في حدّ ذاته بالنسبة لجماعتنا! هذه هي الوجهة. "أنا لا أعرف إلا المسيح"، وهذا المسيح التاريخيّ الذي تمّ بالتالي إلغاؤه. فالمسيح يصبح حاضرًا بالنسبة للآخرين، إذا كان حاضرًا بالنسبة لي! أنا هو حضور المسيح، فحدث شخصه، سرّ شخصه، يمرّ من خلال هذا التواصل [كما تبيّن كلّ الشهادات التي قرأناها]. هناك نتيجة طبيعيّة عند هذه النقطة: اعرفوا أنّ الحركة سوف تنقذها هذه الأقليّة! فركيزة المستقبل هي الشهادة الحقيقيّة" لأولئك الذين ينتمون إليه. وأضاف قائلا: "من الصعب للغاية، من الصعب بالمعنى الإحصائيّ للمصطلح، أن نجد أناسًا يعيشون حقيقةً، وينضوون معًا من أجل القداسة، من أجل الإيمان، الإيمان بالمسيح، من أجل تعلّم الإيمان وعيشه والشهادة له. وممّا يفاقم من هذه الصعوبة حقيقة أنّه من الصعب بمكان إحصائيّا أن يجد البالغين في جماعتنا من يُرشدهم إلى هذا الطريق، من يُثيرهم في هذا السبيل. إنّ من سيسير بالحركة [إلى الأمام] هم أولئك الذين لن يعتبروا الأقليّة [كما حدث بعد نتائج الاستفتاء، باعتبار أنّ نسبة معارضي الإجهاض بلغت 32 بالمئة فقط] بمثابة تقليل من شأنها البتّة، لأنّهم سيكونون قد وسّعوا قلوبهم بالقيمة. والقيمة واحدة، واحدة فحسب! ذلك أنّ الحياة لا قيمة لها من دون المسيح! حدث المسيح. إنّ من سيسير بالحركة إلى الأمام هم أولئك الذين قاموا بهذا اللقاء، وعلامة قيامهم باللقاء هي قدرتهم على الأخوّة والرفقة". إنّ من سيسير بالحركة إلى الأمام هم أولئك الذين لم يمكنهم، على مثال يوحنّا وأندراوس، أن يمحوا الخبرة التي عاشوها مع المسيح، والمحتوى العقائديّ للإيمان، وهم منضوون معًا من أجل هذا. لهذا السبب شدّد دون جوسّاني قائلا: "مستقبل الحركة يُدعى شهادة البالغين"، مضيفًا عبارة من عباراته: "هذا هو الوقت الذي سيكون فيه من الجميل أن يكون هناك اثنا عشر في كلّ العالم"[33].
ممّ تتكوّن الشهادة إذًا؟ "أن تكون حاضرًا في حالة يعني أن تكون هناك بشكلٍ تؤثّر فيه عليها، بحيث أنّك، إن غبتَ، لاحظ الجميع ذلك. حيث تكون، سيغضب الآخرون أو سيُعجَبون بك، أو سيبدون غير مبالين، لكنّهم لن يستطيعوا عدم الاعتراف بِـ "اختلافك"".
ما هي طبيعة هذه الشهادة؟ "إنّ البشارة الحقيقيّة إنّما نقوم بها من خلال ما أثاره المسيح في حياتنا، ويحدث من خلال الانقلاب الذي يُحدثه المسيح فينا، فنحن نجعل المسيح حاضرًا من خلال التغيير الذي يقوم به فينا. إنّه مفهوم الشهادة"[34].
وكما رأينا، فإنّ هذه الشهادة، وبعيدًا عن كونها غير مهمّة وعن إظهارها المسيحيّة بمثابة مهزلة والمسيحيّين بهيئة مهرّجين، تثير فضولا واهتمامًا يدفع إلى فتح حوار غير متوقّع البتّة، حتى مع أشخاص يبدون ظاهريًّا بعيدين. هذه هي الطريقة التي يمكننا أن نلبّي فيها الدعوة التي وجّهها في هذه الأيام البابا فرانسيس إلى أساقفة أمريكا، والتي شعرت بأنّها موجّهة لي، لنا: "أنا أعرف أنّ التحدّيات التي تواجهكم عديدة، وأنّ الحقل الذي تزرعون فيه غالبًا ما يكون معاديًا، وأن ليست قليلة مغرياتُ الانغلاق داخل المخاوف، ولعق الجراح، متحسّرين على زمن لن يعود ومعدّين أجوبة قاسية على مقاومة مريرة أصلا. غير أنّنا رغم هذا كلّه دعاة ثقافة اللقاء. نحن الأسرار الحيّة للعناق بين الغنى الإلهيّ وفقرنا. نحن شهود على تواضع الله وتلطّفه، الذي يسبق في الحبّ حتّى استجابتنا البدائيّة. الحوار نهجنا، ليس بدافع استراتيجيّ ماكر، بل وفاءً لمن لا يكلّ أبدًا من المرور مرّات ومرّات في ساحات البشر حتّى الساعة الحادية عشرة ليعرض دعوة محبّته (متّى 20 ،1- 16). (...) لا تخافوا من القيام بالخروج الضروريّ في كلّ حوار حقيقيّ أصيل. وإلا لا يمكنكم فهم دوافع الآخرين ولا أن تفهموا تمامًا أن الأخ الذي ينبغي الوصول إليه إنقاذه، بقوّة المحبّة وجوارها، لهو أكثر أهمّيّة من المواقف التي نعتبرها بعيدة عن يقيننا، وإن كان أصيلا. فالكلام القاسي والعدائيّ لا يتناسب وشفاه الراعي، ولا موطن له في قلبه، وعلى الرغم من أنّه يبدو لوهلة ضمانًا لهيمنة واضحة، إلا أنّ السحر

---

[33] FRATERNITÀ DI COMUNIONE E LIBERAZIONE, *Documentazione audiovisiva*, Consiglio nazionale di CL, Milano, 30-31 maggio 1981

[34] L. Giussani, 19 marzo 1979; «1954. Cronaca di una nascita», تدوينات من لقاء مع الشباب, in *Un avvenimento di vita, cioè una storia*, EDIT-Il Sabato, Roma 1993, p. 346).

الدائم للخير والمحبّة يظلّ وحده مقنعًا حقّا"[35].

نحن الذين فُضّلنا، لأنّه لم يكن هناك من داعٍ للقاء ما لقيناه ممّا لا يعرفه الكثيرون، نحن الذين أتيح لنا أن نختبر المسيح كأمر جذّاب لا يُقهر، إنّما قد اختِرنا من أجل العالم

لا يواجه المسيح تطفّل السلطة بسلطة أخرى، بل برفقة إنسانيّة متهالكة، "برفقة أناس" اختارهم هو، لكي يدوم حضوره أبدًا في الزمان والمكان

كلّما أراد أحدنا أن يعيش الإيمان ضمن واقعه، ازداد اهتمامه بفهم السياق الذي يتواجد فيه. وذلك ليس من أجل مصلحة اجتماعيّة بسيطة، بل لفهم طبيعة الشهادة التي نحن مدعوّون لتقديمها

هذا الإله، هذا الأنتَ، لا يستطيع أن ينظر إلينا من دون هذا العطف. بهذه الطريقة عرّف الإنسان بما هو الإنسان، لأنّ لا شيء يمكنه أن يوقظ الأنا مثل رؤية أنتَ (إلهيّ) يملك هذه العاطفة تجاه مصيرها

إذا تركنا محتوى خبرة الإيمان خارج الطريقة التي نقول فيها: "أنا"، فإنّ انتماءنا سوف يكون لكلّ شيء، ولكن ليس للسرّ الذي دخل حياتنا. وبالتالي فإنّنا لن نقدّم شهادة إلا حول ما سوف نتمكّن من القيام به

ما الذي أقنع زكّا ومتّى والمرأة السامريّة والزانية؟ أهي قائمة القوانين، المفروضة من الخارج، أم اختلاف الربّ؟ لقد جذبتهم الخبرة التي كانوا يعيشونها مع المسيح الذي كان ينقل إليهم سرّ شخصه

عندما نعقّد أمور حياتنا ونعتبر العلاقة بالواقع بمثابة عنف، فهذا لا يعود إلى أنّ كلّ شيء خاطئ أو سيّئ. كلا! المشكلة تكمن في أنّ الأنت غائب، ذلك الأنت الذي يجعل من الممكن أن يصبح كلّ شيء – كلّ شيء! – صديقًا

عندما نردّ على تحدّيات الواقع، فإنّنا نسمح دائمًا بظهور انتمائنا، أي أغلى ما عندنا، بكلّ شفافيّة وهذا يصبح موقفنا الثقافيّ في العالم

هل يعتقد أحدٌ حقًّا أنّ النهج الذي نتصوّره نحن هو أكثر تأثيرًا من النهج الذي اختاره الله؟ لا يمكننا أن ندّعي أن نسترجع بأفعالنا ما فقدناه في الحياة. هذه هي إذًا مسؤوليتنا: ألا نقاوم نهج الله

ما هي طبيعة هذه الشهادة؟ "إنّ البشارة الحقيقيّة إنّما نقوم بها من خلال الانقلاب الذي يُحدثه المسيح فينا، فنحن نجعل المسيح حاضرًا من خلال التغيير الذي يقوم به فينا"

---

[35] الخطاب في اللقاء مع أساقفة الولايات المتّحدة الأمريكيّة، كاتدرائيّة القدّيس متّى، واشنطن، 23 أيلول/سبتمبر 2015.

عناوين الصور

تعود الصور لفيفيان ماير التي خُصّص لها معرض في متحف مدينة نوورو (سردينيا) لغاية 18 تشرين الأول 2015.

© Vivian MaierMaloof Collection, Courtesy Howard Greenberg Gallery, New York